التأصيل القرآني لحقوق النساء في تولي وظائف الولاية العامة

الحلقة الأولى

بقلم:
الشيخ الدكتور / أحمد صبحي منصور

لايزال مجتمعنا يسير بقدم واحدة ، بسبب انفراد الرجل بالهيمنة على صنع القرار وتغييب فعالية المرأة .ويرجع هذا ضمن أسباب أخرى إلى ثقافة دينية تنتمي إلى العصور الوسطى ، وتخالف في أغلبها التعاليم الإسلامية الحقيقية، وهذه الثقافة تؤكد على حجاب المرأة ليس في الزي فقط ولكن أيضا حجبها عن المشاركة وعن العلم والاستنارة العقلية. وحتى إذا تخطت هذه الحواجز وشاركت مع الرجل في العمل فإنها لا تحصل على نفس فرصته في العمل الميداني وفي الترقي وفي المسئولية الإدارية وصنع القرار مهما بلغت كفاءتها ومهما بلغ إخلاصها وتفوقها . وهذا يخالف الإسلام .

فالله تعالى قد حرم الظلم وتوعد الظالمين بجهنم، وجعل القسط والعدل المقصد من إرسال الرسل وإنزال الشرائع السماوية:(لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ)(الحديد:25). كما جعل ربَ العزة جَزاء الرجلِ مساويًا لجَزاءَ المرأة في العمل الصالح : (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)(النحل 97)(وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ)(غافر 40). وعليه فليس من الإسلام في شيء ان تحرمَ إنسانا يتسم بالكفاءة والتفوق في عمله لمجرد انه امرأة . وأشد من ذلك ظلما لله تعالى ورسوله ودينه ان تمارس ذلك الظلم معتقدا ان ذلك هو الاسلام .

والحال أن للظلم الذي أصاب المرأة بأسم الإسلام وتأثر به المسلمون جذورا قبل القرآن، وهي جذور تحريفية في التوراة تأثر بها المسلمون، وتلونت بها نظرتهم المتدنية للمرأة، وليس المجال هنا للتوقف مع التشريعات الاسرائيلية التي تهين المرأة، فهذا موضوع شرحه يطول، ولكن نتوقف مع الفكرة الشائعة التي أرستها تحريفات التوراة حين جعلت حواء مسؤولة وحدها عن خروج آدم من الجنة . تلك الاشاعة التي صدقها المسلمون ـ أو الذين دخلوا في الاسلام من أبناء أهل الكتاب . مع أنها تخالف القرآن الكريم.

فالشائع أن إبليس هو الذي خدع حواء، وأن حواء هي التي أثرت على آدم، وهي السبب في خروج آدم من الجنة..

ولكن القرآن (البقرة 35ـــ 37) و(الأعراف 20 ـــ 23) يؤكد على أن المسئولية مشتركة بين آدم وحواء، ولا تتحملها حواء وحدها، بل يتحملانها معا، وربما يتحمل آدم النصيب الأكبر.

ففي سورة البقرة يقول تعالى (وَقُلْنَا يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) (البقرة: 35:37.).

ونلاحظ أن الأوامر و النواهي جاءت لآدم وحواء بالتساوي وجاءت بصيغة المثنى " وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا " حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا " .ونلاحظ أن الشيطان خدعهما معا وتسببَ في إخراجهما معا، وجاء حديث القرآن أيضا بصيغة المثنى ليؤكد أن المسئولية تلحق الاثنين معا " فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ " .بل قد نلاحظ أن نصيب آدم من المسئولية أكبر، فالخطاب جاء له رأسا وبصيغة مباشرة " وَقُلْنَا يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ " بل إن اسم حواء لم يرد في القرآن مطلقا.

ولأن المسئولية تقع على كاهل آدم أكثر فانه هو الذي قال عنه القرآن "فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه". وطبعا تابت معه حواء، فالقرآن يذكر الكلمات التي تعلمها آدم في التوبة، وأن حواء رددتها معه، بقوله تعالى في سورة الأعراف (قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) الأعراف:23.

أي أن القرآن يذكر توبة آدم في موضع، ويذكر توبة آدم وحواء في موضع آخر لنفهم أن مسئولية آدم في الذنب أكبر وأشد من حواء.وبالتالي فإن حواء ليست وحدها المسئولة عن إخراج زوجها من الجنة .. بل هو المسئول الأكبر ولا يزال.

الثابت ان المسلمين لم يستفيدوا من القصص القرآني الذي تعرض للمرأة بصورة واقعية دون إجحاف بحقها. فلم يستنكر القصص القرآني تولي امرأة سلطة الملك، بل قال لنا ان قوم سبأ أفلحوا عندما حكمتهم امرأة بالشورى والحكمة.. ولم يستنكر أن تكون هناك ملكة لسبأ . وأنما أستنكر أن يعبدوا الشمس من دون الله .وأورد القرأن ما يدل على كفاءة ملكة سبأ وحسن سياستها وكيف انتهت إلى الإيمان الصحيح في تعاملها مع النبي سليمان . وفى المقابل استنكر القرآن أستبداد فرعون وظلمه وادعاءه الألوهية . وكيف انتهى تعامله مع موسى وهارون بأن اهلك نفسه وقومه .أي كانت بلقيس اكفأ من فرعون فرعون مصر وكل منهما حاكم على قومه.

والبطولة الحقيقية في قصة موسى للنساء، وكل منهن قامت بدورها في منتهى الكفاءة من أم موسى إلى أخت موسى إلى أمرأة فرعون ووصيفاتها، إلى الفتاتين العاملتين في الرعي أبنتى الرجل الصالح في مدين، وقد تزوج موسى احداهما وفي كل الأحوال نرى أمرأة متميزة ومختلفة من الأم إلى الأخت إلى الزوجة، من العاملة إلى الوصيفة إلى المرضعة إلى الملكة . من الفتاة إلى العروس إلى الزوجة التي توشك على الوضع...شخصيات فاعلة مؤثرة ايجابية تمثل كل احوال المرأة .

كما نرى نفس التفاعل تقريبا في قصة يوسف من امرأة العزيز والنساء المترفات في مصر القديمة إلى أم يوسف ونساء أسرته . وفي النهاية يجعل القرآن الكريم المثل الأعلى للمؤمنين في كل زمان ومكان امرأتين : السيدة مريم، وزوجة فرعون . كما يجعل المثل الأسوأ للأشرار في كل مكان وزمان ومكان امرأتين : زوجة نوح وزوجة لوط ..أي أن كفاءة المرأة في الخير لا يعدلها الا تفوقها في الشر . وفي كل الأحوال فهي عنصر مؤثر وفعال في عالم الرجال.

تجاهل الفقهاء منهج القرآن التشريعي

تأسيسا على ذلك يمكن القول إن الفقهاء الأسلاف أجحفوا بحق المرأة . وتجاهلوا حقيقة أن الاحكام في التشريعات القرآنية هي اوامر ليست مطلقة ولكن تخضع في تطبيقها

الظلم الذي لحق بالمرأة والإسلام له جذور تحريفية في التوراة تأثر بها المسلمون، وتلونت بها نظرتهم المتدنية للمرأة .. وبسبب هذا التحريف لم يستفد المسلمون من القصص القرآني الذي تعرض للمرأة بصورة واقعية دون إجحاف بحقها. فلم يستنكر القرآن تولي امرأة سلطة الملك ، بل قال لنا إن قوم سبأ أفلحوا عندما حكمتهم امرأة بالشورى والحكمة .. ولم يستنكر القرآن ايضاً أن تكون هناك ملكة لقوم سبأ . وإنما استنكر أن يعبدوا الشمس من دون الله.

الزوج على زوجته .والمرأة إذا كانت مستغنية عن مال زوجها فمن حقها أن تكون العصمة بيدها وتنص على ذلك في العقد، والعقد شريعة المتعاقدين، والمرأة لها حق أن "تفتدي " نفسها من زوج تكرهه اذا تنازلت له عما دفعه لها من مهر، والزوج اذا لم يكن ينفق على زوجته ضاع منه حق القوامة (النساء 34، البقرة 229، المائدة 1).

ولأن الرجل هو الذي يعول البيت ويدفع المهر بينما لا تتحمل المرأة شيئا في هذا أو ذاك، بل يكفل الرجل نفقاتها شرعا فمن العدل أن يكون حق الابن والأخ ضعف حق البنت والأخت في الميراث، وإلا كان ظلما للابن والأخ أن يتحمل كل منهما مسئولية مالية شرعية ثم لا يحصل على تشريع يعينه على هذا . ولكن لأن الأب و الأم معا يشاركون في عبء تربية الأولاد، فإنه اذا مات الابن فإن الام والاب يتساويان في نصيبيهما في تركته . لكل واحد منهما السدس أو الثلث (النساء 11) .أما شهادة امراتين التي تساوي شهادة رجل واحد فإنها تأتي في موضوع محدد، وهو الاشهاد على الديون فقط (البقرة 282)، وذلك وفقا للسياق القرآني وتطبيقه الذي سار، فقد كان يتم تعيين شهود في الأسواق تكون شهادتهم مثل الختم الرسمي المعتمد، ولأن هذا العمل في الاقتصاد والمصارف والأسواق كانت أغلبيته للرجال – ولا تزال- فقد جاء تخصيص هذه النسبة للمرأة بأن تكون نصف الرجل في الشهادة في الديون المالية، ولو حصرنا نسبة العاملات في هذا المجال بالذات لوجدنا نسبتهن أقل بكثير مما اعطاه القرآن للمرأة .على ان هذه النسبة لا تسري على شهادة المرأة في العقوبات وغيرها .إذا أن شهادة المرأة فيما عدا الديون تساوي شهادة الرجل .

وواضح أنها استثناءات ولكن الفقهاء عمموها فجعلوا للمرأة نصف الرجل في كل الأحوال في الميراث وفي كل التعاملات. والمقصود أن المساواة قائمة في شريعة الله

في القرآن الكريم جعل الله تعالى المثل الأعلى للمؤمنين في كل زمان ومكان اثنتين من النساء هما السيدة مريم العذراء وزوجة فرعون، كما جعل المثل الأسفل لكل الكافرين في العقيدة والسلوك امرأتين أيضا هما زوجة نوح وزوجة لوط . كما قص الله تعالى قصة ملكة سبأ، وتكررت في القرآن قصة فرعون موسى.. وبوسع التدبر القرآني ــ وهو فريضة منسية ـ مساعدة المسلم على المقارنة بين اثنين من الحكام كلاهما تعامل مع نبي من الأنبياء بطريقة مختلفة، وفازت الحاكم الأنثى وخسر الحاكم الذكر وأضاع عرشه وقومه. ليس المقصد هنا أن المرأة أفضل من الرجل في مجال الحكم، ولكنها إشارة تاريخية إلى أن امرأة حكمت فكانت راشدة في وقت يضل فيه أغلب الحكام الذكور.

تزعم الإيمان، ولا يعلم حقيقة ما في القلب إلا الله تعالى. لذا نزلت الآيات مقدما تطرح الموضوع وتضع له التشريع المناسب: يقول سبحانه وتعالى: (يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن وآتوهم ما أنفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن ولا تمسكوا بعصم الكوافر واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم) (الممتحنة 10)
(راجع صحيفة 14 اكتوبر الأعداد رقم (13516) و(13517) و(13518).... بتاريخ 5، 6، 7 سبتمبر 2006، ويمكن مطالعة الحلقات الثلاث لهذا المقال مباشرة على الروابط التالية في موقع الصحيفة على الإنترنت :

http://www.14october.com/Part.aspx?partid=76&issueid=31f7751b-adda-4fd2-bf19-e21ad63c104a
و http://www.14october.com/news.aspx?newsno=22245
و http://www.14october.com/Part.aspx?partid=76&issueid=8c15ba78-fee9-4f79-a1b4-f74df5d0b24d

هذه الآية تخاطب المؤمنين أنه إذا جاءتهم امرأة مهاجرة فعليهم امتحانها، أي سؤالها عن سبب مجيئها واختبار حالها حتى لا تكون عينا للعدو، وحتى يتأكدوا حسب الظاهر من حالها، أما حقيقة ما في القلب فمرجعه إلى الله. وإذا عرفوا

آخرين خيرا منهم (47 / 32 : 38).

كان البخل شائعا بين هذه النوعية من المؤمنين وترتب عليه أن توعد الله تعالى بالعذاب اولئك الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل وذلك بعد أن كرر لهم أوامر العهد والميثاق

ليس في الإسلام إكراه على فعل الطاعة. وليس فيه عقوبة يوقعها الحاكم المسلم في ما يخص حقوق الله تعالى من ايمان قلبي وعبادة . العقوبة لا تكون إلا في ما يخص حقوق

...

أن من الظلم للأمة أن تحرمها من كفاءة المرأة، وهي نصف المجتمع . ويكفي ان الرجل يعيش عمره الأول في أحضان المراة يتشرب منها كيف يعيش بقية عمره التالي. فاذا كانت جاهلة خامدة فإن الجهل والتخلف سينعكس على المجتمع كله. واذا كانت مؤثرة فعالة فسيتحول بها المجتمع إلى طاقة من الحيوية والانطلاق.

وأخيرا فإن دين الله بريء من كل قول أو ثقافة تحوي الظلم والتخلف. والله تعالى أنزل القرآن وفيه كل القيم السامية، وعلينا ان نفهم القرآن بمصطلحاته وأن نتفهم تشريعاته من أوامر وقواعد ومقاصد، ونحتكم إلى القرآن في كل ما لدينا من ثقافات وتراث وقيم وتقاليد وعادات.

(يتبع يوم الثلاثاء القادم)

 عالم أزهري ــ رئيس المركز العالمي للقرآن الكريم